الطقوس الشرقية والكنيسة الكاثوليكية

مقتطف من رسالة حديثة لاحد افاضل كهنة الروم الكاثوليك

لمَّا عوَّل غبطة السيِّد البطريرك كيرلُّس الثامن والسادة الاجلَّاء اساقفة الروم الملكيين الكاثوليك على عقد مجمع ملّي في عين تراز أوجست قلوب بعض اهل الطائفة خوفًا على طقسهم كأنَّ خطرًا يتهدَّدهُ او سهامًا تترصَّدهُ فاسرع احد افاضل كهنة الروم الكاثوليك من اجلهم مقالًا فكتب كراسًا ليسكن روع اولئك المتحفزين للدفاع عن طقسهم وبيَّن لهم انَّ خوفهم من اشباح دون ارواح. وفي هذا الكرَّاس فصول حسنة عن الطقوس الشرقية عمومًا والطقس اليوناني خصوصًا وحريتها في الكنيسة الكاثوليكية رأينا اقتطافها لفائدتها وكتمةً لمقالات ستعادة ظهرت في اعداد المشرق السابقة ل. ش

الطقس الكنسي

الطقس عند بعضهم هو الامر الجلَل. هو محور الدين والامور الكنسية وهو الشغل الشاغل لمن لا شغل له. بل قد جعلوه واية حرب يولبون حواليها كل جاهل بحقيق معناه للجهاد عن امور لا طائل تحتها او عن مآرب خصوصية .... وقانا الله من شر الجاهلين والمتحزبين

ما هو الطقس ومنزلته من الدين والملَّة؟ الطقس كلمة يونانية (Τάξις) معناها نظام ورتبة فهو في عرف الكنيسة مجمل الصلوات والترتيبات والشرائع التي وضعتها الكنيسة ليجري عليها ابناؤها في عبادة الخالق مثل صلوات الفرض الكنسي وحفلات توزيع الاسرار الالهية وشرائع الصوم وما شاكل فيتبيَّن لك بديهًا ان الطقس ليس هو الَّا مظهر من مظاهر العبادة الخارجية ولكنه ليس من جوهر العبادة في شيء البتة وانما هو وضع كنسي لا الهي. اجل ان العبادة الخارجية لضروريَّة للانسان من اوجه عديدة وكفى برهانًا ان الله عزَّ وجل امر بها في العهد القديم والجديد. بيد ان تحديدها على نوع دون اخر منوط بالسلطة المتولية من قبله تعالى امور الدين على الارض. وعليه فالسلطة الواحدة التي رتَّبتها تستطيع ان تبدلها. فالعبادة النفسيَّة والعبادة الخارجية والطقوس الكنسيَّة هنَّ من الدين بمنزلة النفس والجسد والاثواب من الانسان فمن النفس والجسد يتركب الانسان جوهريًا كذلك بالعبادة النفسيَّة وبمظهرها العبادة

الخارجية يقوم الدين وانما الطقوس اثواب تتميّز بها طائفة دون اخرى كما تتميّز الشعوب والملل بلغاتها وعوائدها وأزيائها وكلها من الانسانية في نوع واحد

فالطقس اليوناني يميّزنا نحن معشر الروم الملكيين عن سائر الطوائف الكاثوليكيّة من لاتين وموارنة وسريان وارمن وكلدان واقباط . وهو والحق يقال على اعظم جانب من الأبّهة والجلال حتى سُمي بالطقس الملوكي ويحق لنا بل واجب علينا ان نحترص عليه احتراص العاقل على وديعة ثمينة انه وديعة ابائنا القديسين معلمي الكنيسة . الّا ان المبالغة في كل شيء مذمومة والشطط والضلال في مثل هذه الامور قد يُفضيان الى اقبح العواقب

ما قولكم فيمن يفضّل ان يعدم جسدهُ وحياتهُ ولا يخسر ثوبهُ لعمري قد يوجد قوم بل افراد يؤثرون طقسهم على العبادة والدين وما ذلك بنادر الحدوث . . . وما هو من هذا القبيل ايضاً تشاحن وتحارب اولاد الدين الواحد والمعتقد الواحد لسبب بعض اختلافات طقسية على حين يتقرّبون ويتحبّبون من الناكرين دينهم ومعتقدهم . ومعاذ الله ان اشعل نار الفتنة والتعصّب التي تخرب البلاد وينهي عنها رب العباد . انما ألوم وكل عاقل يلوم معي التباغض والتحزّب لداعي طقس كنسي

ثم اني اوجه الكلام الى الذين يحملون راية الطقس وينزلون في ميدان حرب لا هدنة ولا نهاية لها إلّا تدبّرتم الامر اوّلاً بعقل راشد وفكر سديد على حدّ كل من يدخل ساحة حرب مخافة ان تذهب اوقاتنا واتعابنا وقفقاتنا سدى

من هو العدوّ الذي ترومون مدافعتهُ ؟ وما هي الاخطار التي تتهدّد الطقس وذويه ؟ ومن هم المعهود اليهم في حفظ الطقس والمدافعة عنه ؟ وما شانك انت . . . .

مَن يتحامل على الطقس اليوناني الذي كرّستهُ الايام وتتشبث به الوف من الامم فيريد تبديله او التغيير منهُ ؟ ما ادري . . . . لا جرم ان الذي له ساطة وكفاءة في هذا الامر فيُخشى منهُ غائلةٌ ما هو الّا مجمعنا الطائفي والحبر الروماني راس الكنيسة الاول فحسبنا طأمنة البال وازالة كل ارتياب ووسواس من هذا الباب لنكفي جماعتنا مؤونة الاضطراب والمدافعة حيث ليس لها من داعٍ ولا مناسبة

المجمع الملّي والطقس

ان الغاية من عقد هذا المجمع هو النظر في الامور الكنسيّة للاصلاح والترتيب

والتحسين ولا شك ان آباءه المحترمين يأتون على مسئلة الطقس وملحقاته لينقحوه مما طرأ عليه من شوائب التغيير والتنقيص او الزيادة بسبب الجهل والتهامل . اما ان يمسوه بما يشوه هيئته او يغيرها فهذا وأيم الحق ليس بما يدور في خلدهم ولا من نيتهم في شيء ولو خطر لاحدهم لأقصاه عن فكره سريعاً لما يحول دونهُ من الصعوبات والموانع التي دونها خرطُ القتاد

كلُّ ما هنالك ان يضعوا بعض ترتيبات تتقاضاها من كل وجه احوالنا الحاضرة مما يرجع الى خير النفوس وسلامة ورونق الطقس . وكل ابن عاقل وخاضع لاوامر كنيسة المسيح يركن بلا الثقة الى هذه السلطة التي اقامها الله ووكل اليها امر الطقس والدين عينه . فالتخوُّف اذاً والاضطراب لا وجه لهما والتشاغل بما لا يعنينا ضرب من الحرق ومجاوزة الحدود

على انه ان كان لاحد من ابناء الطائفة متمنًى من اصلاح يرجوه او نظام صوابي مفيد للمصلحة العامة فلهُ ان يرفعهُ الى السادة الاساقفة الاجلاء بكل احترام ويقف عند حدود الطاعة البنوية لقبول كل ما ترتئيهُ السلطة العليا في ذلك النظام وعلى النظام تترتب الراحة العامة . وعلى كل حال فالامور مرهونة لاربابها منوطة باصحابها . ما قولك اذا ترك الخياط المقصّ والابرة وتناول البودقة وزردية الصياغة او هجر التاجر مخزنهُ ومرتزقه والحق بصناعة الملاحة يبتغي قيادة السفن في عباب البحر مخاطراً بنفسه ونفوس غيره . وقل للأمة التي يتولى حوذيها وحمالها زمام الاحكام ووضع النظام : « عليك السلام » . . . رحم الله شاعرنا حيث يقول :

لو كان كل يعرف الحق سوى لكان كل الناس اهلاً للقضا
وكلُّ ما في غير مشواه ثوى يسمج في العين ويؤذي من رأى

وما هو نقطة العجب انه بينا نرى سائر الحقوق المدنية محفوظة وحدود الحرَف والصناعات فيما بين اهلها فاصلة وخصوصياتها صائنة نشاهد بعين الاشمئزاز والاسف وظائف الدين والعبادة بين القوم مشاعة وخصائص خدمة البيعة للكبير والصغير مباحة . على انه لو اخطأ احد الكهنة ونصح لك في شيء من شؤون تجارتك او صناعتك مودةً منه وغيرةً لا تلبث ان تشير الى تطاوله وتداخله بما لا يعنيه وترقبهُ عند حدّه . هذا عند ما لا تقابل مودته وغيرته هذه بتبسُّم الاحتقار وتغضّ الرأس ازدراء . فليس الّا حقوق

الدين بجملته والسلطة الكنسيَّة مبتذلة حتى يشترك فيها الخاصّ والعامّ وهي احق الامور بالصيانة والهيبة . وانه لو تنازل ارباب هذه السلطة انفسهم او نسي خدَمة البيعة حقوقهم وواجباتهم فاحبُّوا ان يشركوا في خصائص وظائفهم مَن لا دخل له فيها لاقتضى منه الراي والاستقامة ان يأبى ويتذر ادبًا وتديُّنًا واحترامًا

الاحبار الرومانيون والطقوس الشرقية

لا جرم انه ان كانت الطقوس الشرقية ولاسيما اليونانية باقية على حالها وقديمتها محفوظة مصونة من كل تغيير وتبديل قد طرأ على رفيقاتها الطقوس الغربية فالفضل في ذلك للاحبار الرومانيين وما أُحدث فيها من بعض التغييرات الجزئية فهو من ابناء هذا الطقس انفسهم واليك الشهادات التاريخية التي تسند مزعمنا

انه بعيدٌ عن فكر الاحبار الرومانيين ولا بُعد الثريا عن الثرى توحيد الطقوس الكنسيَّة وجَمعها الى واحد يضمّ جميع ابناء الكنيسة الكاثوليكية . لا مشاحّة في ان سلطتهم الالهية المطلقة على الكنيسة كلها شمولية واساقفةً تمتدّ الى الطقوس كلها ايضًا كما تتناول جميع الشرائع الكنسية ينسخونها ويبدلون منها ويضيفون كما يشاؤون وتدعو اليها احوال الكنيسة فان كلّ ما يحلُّونه او يربطونه على الارض هو محلول ومربوط في السماء

بيد انهم لا يجهلون ان جمال الكنيسة وبهاءها في وحدة الايمان واختلاف الطقوس قال بيوس التاسع في براءة رُجّهها الى بطاركة الشرق واساقفتهم في ٢ نيسان سنة ١٨٦٢ : « ان كثرة الطقوس المقدسة وتنوُّعها اذا كانت شرعية لا تضرّان قط بوحدة الكنيسة بل انهما تزيدان في منزلتها وجلالها ورونقها وبهائها » . فهي الكنيسة تلك الملكة التي وصفها المرتل الالهي داود قائلًا : « قامت الملكة من عن يمينك متوشحة بثوب مذهَّب مزين موشًّى » ولذا قد حافظوا ويحافظون على بقاء الطقوس العديدة ولاسيما الشرقية بقديمتها وتنوعها وبهائها كما يسهرون على وحدة الايمان الكاثوليكي في كل المكونة وطهارة الادب المسيحية

ثم اخذ هنا الكاتب الفاضل يعدّد الشواهد على بيان تضيّقه وذكر بعض اقوال الاحبار الرومانيين في براءاتهم وخطبهم على وجوب حفظ الطقوس في كل جهاتها وخواصّها . وقد اثبت المشرق (٣ : ٢٨٩-٢٩٦) لجناب الاديب نجيب افندي الزيّات مقالةً ضافية الذيل في هذا المعنى فنحيل القرّاء الى مراجعتها اختصارًا

الشرقيون وطقوسهم

ليت الشرقيين يحافظون على طقوسهم مثل ما رومية تحرص عليها فانه ما ناب هذه الطقوس الشريفة من تغيير او شائبة فمنهم انفسهم . واني لا اتكلّم عن بقيّة الطوائف الشرقية التي قد ادخلت في طقوسها رتباً عديدة قرّبتها من الطقس اللاتيني . بل أقتصر الكلام على طائفة الروم الملكية

هذا القداس الالهي راس الطقوس واهمّها هل تجد في الطائفة كلها كاهنين يحتفلان به على طريقة واحدة وليس الاختلاف فقط فيما لم تقيّده كتب الليتورجيا بل فيما هو مشار اليه وموضح . دونك اهمّ الملاحظات : يجب ان تُعَدّ القرابين قبل المباشرة في القداس اذ ان افشين ختامها هو فاتحة الليتورجيا المقدسة . ومع ذلك فغير مرة يبتدئ الكاهن بالقداس قبل تمام ذبيحة التقدمة . وترى غيرهُ يأتي في اثناء القدّاس يشترك به مع من تقدّمهُ وقد اتمّ منهُ جزءاً ثم يخرج قبل ختامه خلافاً لما اوصى به مجمع عين تراز وغيرهُ . ولا يندر ان يقام قداس يوحنا فم الذهب مقام قداس باسيليوس لسبب طفيف . ولست ادري لاي وجه يحذفون من انتيفونات القداس استيخوناتها نظير الروم الذين حذفوا من القداس الالهي غير ذلك (وهم المحافظون !!!...) وغيرهم يبتدي بالانتيفونات ويختم بالكاروزي وهما مفترقان .... ودعنا من غلطات المصلين في الطروباريات والقناديق والاراميس والكينونيكات فلنذكر فقط زيادتهم كلمات عديدة مثل : عليها اشرف السلام . ولك يا رب « ساجدين وخاضعين » . ومبارك الاتي باسم الرب في اول القداس . وحذفهم « ذكرها كاهن وكيرياليصون ثلثاً باسم الرب بارك يا رب » في اخر القداس ومجاوبتهم كيرياليصون بدل « استجب يا رب » واشياء كثيرة نظيرها مما لا يسعنا ذكره في حدود هذه العجالة

ولا حرج . فان الكهنة انفسهم يبدلون ويضيفون وينقصون خلافاً لنص الليتورجيا المقدسة ولا اذكر سوى صلوات خشوعية قبل التقديس ليس لها في الكتاب من اثر . وذكرانية الاحياء والاموات قبل : خاصة .... ومحلها للكاهن فيما بعد . والحاق افشين : « اذكر يا رب هذه المدينة .. الخ » بالذي قبله على ان بينهما ذكر روساء الكنيسة علناً . وتلاوة افشين « يا مبارك مباركيك يا رب » داخل الهيكل على ان الكتاب يشير الى

تلاوته خارجاً خلف الامبونوس .. وهناك ايضاً تغييرات شتّى وحركات غريبة لا يكفي لذكرها كتاب برمّته

واذا اتينا على تلاوة الفرض الالهي وكتب التيبيكونات وخدمة الاسرار المقدسة والحفلات الدينية فهناك الطامّة الكبرى والحبصة العظمى مما ينشئ التشوّش ويشوّه الرتب الكنائسية ويحطّ من اعتبارها . والسبب في ذلك ليس من اختلاف التيبيكونات عندنا على حين كان يجب التعويل على واحد منها لعامّة الكنائس بل لجهل او تهامل من هو مرتّب عليه الاستعداد ومعرفة القوانين اللازمة قبل المباشرة بالصلوة او خدمة الاسرار المقدسة تدنُّساً واجلالاً

ليت شعري . لو كنّا نهتمّ بمطالعة كتبنا الطقسية والمحافظة على قوانينها القديمة بدل التجند للحرب والمدافعة ضد عدوّ وهمي ... بل ضد الخير والاصلاح أما كان بنا اولى وللطقس انفع

الطقس والعبادات الحديثة

ما اقبح وما اضرّ غلط الذين لا يميّزون بين الطقس الاصلي وانواع العبادات الحديثة التي لا دخل لها معه الذين يتسلحون بحجة الطقس كحربة ذات حدّين ويقفون على باب الكنيسة كملاك الرب قديماً على باب الجنة ليمنعوا كل عبادة جديدة ان تدخل المعبد الملكي . مسكين ايها الروسي الملكي . قف خارج الجنّة وابكِ . فامّا ان تتجرّد عن كل عبادة مهما لذّت لديك وطابت بها نفسك وجدتَ خالقك او ان تحرّم طقسك كله . فاي شركة بين الطقس وهذه العبادات الاجنبية ؟ كيف الانسان الواحد يحضر الذبيحة الالهية حسب الطقس اليوناني ويستطيع من بعد ذلك ان يكرّم الحمل المذبوح بالاحتفال بزياح القربان المقدس؟ .... كيف تجتمع في نفس واحدة عبادة الايقونات المقدسة حسب الطقس الشرقي وعبادة قلب يسوع فادينا حسب العادة الغربية ؟ هل يا ترى الفم الواحد يستطيع ان يتلو قانون البراكليسي ثم يتلو السلام الملائكي الذي تتألف منهُ المسبحة ؟ .... قال بولس الرسول : اله واحد ورب واحد وايمان واحد ومعمودية واحدة ... ويردف اصحابنا : عبادة واحدة وطقس واحد ... وقال الرب : « بسحاني لا تثّروا » ويقول اصحابنا : « وبالطقس لا تمسّ » . اجل يا صاح طقس واحد

ان جاء القديس باسيليوس الكبير فوضع للكنيسة اليونانية الليتورجيا المعروفة باسمه مختصرًا فيها خدمة القديس يعقوب . وما لبث القديس يوحنا ذهب الذهب ان اختصر خدمة باسيليوس واعطانا خدمته المعروفة باسمه . ثم نشأت بعد ذلك خدمة البروجيازمانا المنسوبة الى غريغوريوس الكبير بابا رومية

فيتبين لك من هذه التغيرات الطقسية المتوالية من السيد له المجد والرسل الاطهار واباء الكنيسة وغيرهم ان الطقس ما كان في نظرهم الا ما هو عليه حقيقة نوع من انواع العبادة الخارجية يمكن تغييره حسب الظروف والدواعي المختلفة

ثم تتبع صاحب المقالة تاريخ الطقوس والصلوات في الكنيسة وبيّن ما طرأ عليها من التقلبات على اختلاف الكنائس وتداول الايام بيد انه لم يسمح بان يكون حق التصرف بها الا لارباب الكنيسة التي نالت تلك السلطة من الله . ثم بيّن ان تلك الطقوس لا تُمس باذى اذا استحسن المؤمنون بعض عبادات خارجة وان جديدة تريدهم تقيّ ونشاطاً في خدمة الله واستدلّ على ذلك برغبة الشعب في تلك العبادات الصالحة الى ان قال : وصوت الشعب صوت الله وما باقي من الله لا يقوى عليه بشر

كتاب فضائل الكلاب

على كثير ممن لبس الثياب

لابي بكر عليّ بن احمد الشهير بابن المرزبان

رواية القاضي ابي القسم عليّ بن المحسّن بن عليّ التنوخيّ

توطئة

سبق لنا في تعريف ديوان السموءل (ص ١٦١) انّ ذلك ديوان كان مدرجاً في الاصل في مجموع ادبيّ يحتوي على عدّة آثار من جملتها « كتاب فضائل الكلاب » . وقد وعدنا بان ننشر الكتاب المذكور عند سنوح الفرصة فقد حانت تلك الفرصة وها نحن نقوم بالوعد . كان هذا الكتاب الثالث من ذلك المجموع يبتدئ في الصحيفة ٤٤ وينتهي بالصحيفة ٦٣ فتكون جملة صحائفه ٢٠ وصفحاته ٤٠ صفحة بالخطّ المشرقي الحسن . وقد مرّ انّ تاريخ كتابته سنة ٦٤٩ (١٢٥٢) كتبة المجموع وقد قابلهُ على الاصل في تلك السنة اللغويّ الشهير الحسن بن محمّد الصغانيّ